مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 4 السنة: 2020
ص: 82 - 97 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

إشْكَالِيَةُ قَضِيَّةُ الصِّدْقِ وَالكَذِبِ وَتَجَلِّيَاتِهَا فِي النَّقْدِ الأَدَبِيِّ القَدِيمِ

The problematic of the issue of truth and lies, and their manifestations in ancient literary criticism

د. طارق زيناي *

Tarek Zinai

جامعة العربي بن مهيدي * أم البواقي *

Université larbi ben mhidi oum el bouaghi

zinaitarek@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/04/15	تاريخ القبول:2020/05/14	تاريخ النشر : 2020/11/07

مُلَخَّصُ البَحْثِ

تباينت آراء النقاد القدامى حول قضية الصدق والكذب في الشعر، فذهبوا في ذلك مذاهب شتَّى، وقد كان تناولهم لها من خلال علاقتها بالمعنى، فمنهم من ربط الشعر الحق بالصدق، ومنهم من جعل الكذب أداة مهمة لصناعة الشعر، ومنهم من توقف في الحكم على هذه القضية، ومنهم من توسط واعتدل في رؤيته لهذه القضية، ولعل الإشكال المطروح الذي تناوله المقال يرجع إلى محل إعراب هذه الإشكالية في الدرس النقدي العربي، وكيف نظر إليها النقاد بمختلف توجهاتهم، وقد اعتمد الباحث منهجا وصفيا تحليليا، حاول من خلاله مقاربة الطروحات النقدية المتباينة، فخلص في نهاية المقال إلى مجموعة من النتائج لعلَّ أهمها : هو اختلاف النقاد في رؤيتهم لقضية الصدق والكذب، وأنَّ أنصار الصدق في الشعر يرتكزون على خلفيات أخلاقية / دينية، وأنصار الكذب يرتكزون على المعطى الفني الحاضر في المبالغات ومخالفة الواقع .

الكَلِمَاتُ المِفْتَاحِيَّةُ : إشكالية؛ صدق؛ كذب؛ نقد؛ قديم.

Abstract :.

The opinions of the old critics differed on the issue of truthfulness and lying in poetry, so they went on various doctrines, and they approached it through its relationship to meaning. Some of them linked true poetry with truthfulness, and some made lying an important tool for making poetry, and some of them paused in judging the issue, and some of them mediated and moderated in their vision of this issue. Perhaps the problem raised in this article is due to this

* طارق زيناي. zinaitarek@gmail.com

problem expressed in the Arab critical lesson, and how the critics viewed it with their various orientations. The researcher adopted a descriptive analytical approach, through which he tried to approach different critical propositions . At the end of the article, he concluded with a set of conclusions, perhaps the most important of which are: critics differ in their view of the issue of truthfulness and lies, and that supporters of truthfulness in poetry are based on ethical / religious backgrounds, and supporters of lying are based on the artistic evidence present in exaggerations and contradicting reality.
Keywords: Problematic; Truthfulness; Lie; Criticism; Ancient.

تمهيد:

إنَّ المتأمل للدرس النقدي العربي القديم يجد حضور مجموعة من القضايا التي شغلت النقاد آنذاك كقضية اللفظ والمعنى والسرقات الشعرية والانتحال وعمود الشعر والخصومة بين القدماء والمحدثين وغيرها، وقد كان لنقد المعاني حضوره البارز ضمن هذه القضايا من خلال الوضوح والغموض والصحة والخطأ والصدق والكذب، هذه الثنائية الأخيرة أسالت حبرا كثيرا عند النقاد، واختلفت لأجل ذلك وجهات نظرهم، لاختلاف مرجعيات كل واحد منهم، ولعلَّ جماع ما قيل في هذه القضية لا يكاد يخرج عن ثلاثة مواقف واضحة، كل موقف له مؤيدوه، وله أدلته، وله وجهاته، ولعلنا نتساءل – من خلال استقراء هذه المواقف – لماذا ظهرت قضية الصدق والكذب في الدرس النقدي القديم، وهل لذلك مسوغات مقبولة ؟ وكيف تعامل النقاد القدماء مع المعطى الشعري الذي وصلهم من خلال ثنائية الصدق والكذب؟ وهل باستطاعتنا ترجيح رأي على آخر في هذا الخلاف المعتبر في النقد العربي القديم؟ هاته الإشكالات وغيرها سنحاول الاقتراب منها من خلال العناصر التالية :

مَوْقِفُ النُّقَادِ القُدَامَى مِنْ قَضَيَّةِ الصِّدْقِ وَالكَذَبِ فِي الشِّعْرِ:

إنَّ المطالع لآراء النقاد في قضية الصدق والكذب في الشعر يرى خلافا معتبرا؛ فإذا كان بعضهم قد ألزم الشاعر بضرورة التزام الصدق، فإن أكثر النقاد لم يلزمه لا بصدق ولا كذب، وإنما

المعتبر في ذلك يرجع للبراعة والمقدرة في الصناعة والصياغة الشعرية، وهناك من توسط في ذلك، وفيما يأتي نتناول هذه المواقف :

أولا : أَحْسَنُ الشِّعْرِ أَصْدَقُهُ :

إن المتأمل للشعر الجاهلي يرى إشارات لهذه القضية، فقد كانت العرب – على سبيل المثال – تعدُّ المهلهل بن ربيعة التغلبي من الشعراء الكذبة في قوله :

وَلَوْلَا الرِّيحُ أُسْمِعُ أَهْلَ حَجْرٍ	صَلِيلَ البِيضِ تُقْرَعُ بِالذُّكُورِ

ولهذا قال عنه محمد بن سلام الجمحي (ت232هـ):« وَزَعَمت الْعَرَب أَنه كَانَ يدعى فِي شعره ويتكثر فِي قَوْله بِأَكْثَرَ من فعله »[1]

ويقول عنه ابن قتيبة (ت276هـ)كذلك : « هو أحد الشعراء الكذبة » [2] لبيته السابق.

ونجد أيضا زهير بن أبي سلمى يصف حديثه بالصدق في وصف الحرب، وذلك في قوله [3] :

وَمَا الْحَرْبُ إِلّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ	وَمَا هوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ

ويعلق على البيت السابق الزوزني (ت486هـ) بقوله : « ليست الحرب إلا ما عهدتموها وجربتموها ومارستم كراهتها، وما هذا الذي أقول بحديث مرجّم عن الحرب، أي هذا ما شهدت عليه الشواهد الصادقة من التجارب وليس من أحكام الظنون » [4]

وهذه الإشارات جميعها توحي بكراهة العرب للكذب وإشادتهم بضده، ومع مجيء الإسلام توطَّد هذا الحكم بوصفه معيارا أخلاقيا أولا ونقديا ثانيا، وقد جاءت النصوص القرآنية والنبوية مؤصلة هذا الأساس، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (227) ﴾[الشعراء : 224 – 227] فمنطوق الآية يدلُّ على ذم الشعراء الذين يسيرون في سبل الضلالة والهوى، ويقولون ما لا يفعلون، واستثنى الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ الذين يتحرُّون الصدق والحق في أقوالهم وأشعارهم، ومما يصدِّق هذا ما قاله القرطبي في تفسيره لهذه الآية : « لما نزلت: " والشعراء" جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا نبي الله ! أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلم أنا شعراء؟ فقال:"

اقرءوا ما بعدها" إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " أنتم " وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا " أي بالرد على المشركين، قال النبي صلى الله عليه وسلم:" انتصروا ولا تقولوا إلا حقًّا ولا تذكروا الآباء والأمهات » [5]

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة فيها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للصدق في الأقوال، وتثني على الشعراء الصادقين، وتذم الكذب والكاذبين، وانتقل هذا المقياس الأخلاقي إلى صحابته من بعده، بل أضحى معيار الصدق بعد ذلك من أهم مقاييس صحة المعنى وجودته.

فإذا تأملنا ما كتبه الجاحظ (ت255هـ) حول هذه القضية نجد أن يميل إلى الواقعية في الطرح الأدبي، وعدم الانسياق مع مبالغات المولدين، فمثلا نراه عند إيراده شعر أبي البلاد الطهوي ومغامراته مع الجن والشياطين، يتهمه بالكذب، فيقول : « وأبو البلاد هذا الطهوي كان من شياطين الأعراب، وهو كما ترى يكذب وهو يعلم، ويطيل الكذب ويجبِّره [6]، وقد قال كما ترى:

فَقَالَتْ زِدْ فَقُلْتُ رُوَيْدَ إِنِّي	عَلَى أَمْثَالِهَا ثَبْتُ الجَنَانِ » [7]

يعدُّ ابن طباطبا (ت322هـ) من أوائل الذين نادوا بضرورة الربط بين القيمة الأخلاقية وبين النواحي المختلفة المتعلقة بالشعر؛ كالصدق في التشبيه والصدق في عاطفة الشاعر، فنجده مثلا يقول متحدثا عن ما يجب أن يكون عليه الشاعر في تناوله للأغراض الشعرية المختلفة من خلال تناسبها مع المعاني المتوافقة معها : « إذا وَافَقَتْ هَذِه المعَاني هَذِه الحَالات تَضَاعَفَ حُسْنُ مَوْقِعها عِنْد مُسْتَمعها، وَلَا سِيَّما إذا أُيِّدَتْ بِمَا يَجْلبُ القُلوبَ من الصِّدق عَن ذَات النَّفس بِكَشْفِ المعَاني المخْتَلِجَةِ فِيهَا، والتَّصْرِيحِ بِمَا كَانَ يُكْتَمُ مِنْهَا، والاعترافِ بالحَقِّ فِي جَميعها » [8] ولهذا نراه في أكثر من موضع يمدح التشبيه القائم على الصدق في الوصف، وأنه دلالة على حذق صاحبه، يقول في هذا : « فَمَا كانَ من التَّشْبيه صَادقاً قلتَ فِي وَصْفِهِ: كأنَّه، أَو قلتَ: كَكَذَا، وَمَا قاربَ الصَّدق قلتَ فِيهِ: تَرَاهُ أَوْ تَخَالُه أَوْ يَكَادُ. فَمن التَّشبيه الصَّادق قَولُ امرِيءِ القَيْس:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا والنُّجومُ كأَنَّها	مَصَابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لقُفَّالِ

فَشَبَّهَ النجومَ بمصابِيحِ رُهْبَانٍ لفرطِ ضِيَائها وتَعهُّدِ الرُّهْبَان لمصَابيحِهْم وقيامِهِمْ عَلَيْهَا لتُزْهِرَ إِلَى الصُّبْح، فكذَلكَ النُّجومُ زَاهرةٌ طُولَ اللَّيلِ، وتَتَضاءَلُ للصَّبَاح كتَضَاؤلِ المصَابيحِ لَهُ » [9]

وهذا الاحتفاء بالصدق عند ابن طباطبا له علاقة وطيدة بطروحاته التي تكلم عنها حول التناسب والتناسق بين جميع مقومات الجمال الفني في القصيدة، ولعلَّ قمة الجمال عنده مبعثها هو الصدق، وهذا التناسب الذي نتكلم عنه في أصله هو « عمل ذهني يعرض على العقل ليقبله أو يحكم فيه، والعقل لا يطمئن إلا إلى الصدق وهو يستوحش من الكلام الجائر الباطل » [10]

ولهذا نجده عند حديثه عن المولدين، يجعل أفضلية القدامى عليهم يتمثل في الصدق الذي يمثل قيمة حاضرة في جلِّ أغراضهم الشعرية، يقول في هذا : « إنَّ من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء وفي صدر الإسلام من الشعراء كانوا يؤسِّسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحا وهجاء، وافتخارا ووصفا، وترغيبا وترهيبا إلا ما قد احتمل الكذب فيه في حكم الشعر من الإغراق في الوصف، والإفراط في التشبيه، وكان مجرى ما يوردونه منه مجرى القصص الحق، والمخاطبات بالصدق فيحابون بما يثابون، أو يثابون بما يحابون » [11]

أما إذا انتقلنا إلى عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) فإننا نجد موقفه لا يختلف كثيرا عن ابن طباطبا في اعتبار الصدق قيمة يشهد لها العقل قبل النقل، ولكنه مع ذلك أكثر مرونة في التعامل مع هذه القضية، عندما يقرُّ بمقبولية التصوير والتخييل والتمويه، بل إنه ينقل موقف هذا المذهب مبينا المقصود من بيت حسان الشهير الذي يقول فيه[12]:

وإنَّ أَحْسَنَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ	بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

حيث يرى أن شرح مقولة : " أَحْسَنُ الشِّعْرِ أَصْدَقُهُ " يراد بها « أن خير الشعر ما دلَّ على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تروّض جماح الهوى وتبعث على التقوى، وتبيّن موضع القبح والحسن في الأفعال، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال، وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال، كما قيل: «كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه»، والأول أولى، لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر » [13]

ويتبع قوله هذا بذكر دليل القائلين بصدقية الشعر : « فمن قال: «خيره أصدقه» كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوّز إلى التحقيق والتصحيح، واعتماد ما يجرى من العقل على أصل صحيح، أحبّ إليه وآثر عنده، إذ كان ثمره أحلى، وأثره أبقى، وفائدته أظهر، وحاصله أكثر » [14]

إنَّ من النقاد من ينكر الكذب القائم على المبالغة ويرى « أن خير الكلام ما خرج مخرج الحق، وجاء على منهاج الصدق من غير إفراط ولا تفريط، والمبالغة لا تخلو عن ذلك كما جاء في أشعار المتأخرين من الإغراق والغلو » [15]

هذا من وجه، ومن وجه آخر « وهو أن المبالغة لا يكاد يستعملها إلا من عجز عن استعمال المألوف والاختراع الجاري على الأساليب المعهودة، فلا جرم عمد إلى المبالغة ليسد خلل بلادته بما يظهر فيه من التهويل ولهذا تراها مخرجة للكلام إلى حد الاستحالة » [16]وهذا ما ذكره حازم القرطاجني (ت684هـ) في كلامه عن ماهية الشعر عند ذكر علاقة هذا الأخير بقيمة الكذب، فيقول : « وإنما يرجع الشاعر إلى القول الكاذب حيث يعوزه الصادق والمشتهر بالنسبة إلى مقصده في الشعر، فقد يريد تقبيح حسن وتحسين قبيح, فلا يجد القول الصادق في هذا ولا المشتهر, فيضطر حينئذ إلى استعمال الأقاويل الكاذبة » [17]

وقد حدَّد المرزوقي (ت421هـ) لنا من يفضل الصدق في الشعر بقوله : « فمنهم من قال :" أَحْسَنُ الشِّعْرِ أَصْدَقَهُ "قال: لأن تجويد قائله فيه مع كونه في إسار الصدق يدلُّ على الاقتدار والحِذق » [18]

ثانيا : أَحْسَنُ الشِّعْرِ أَكْذَبُهُ :

إذا كان الغالب المعيار الحاكم على الشعر في صدر الإسلام هو معيار الصدق وإصابة الحق، فإن الأمر اختلف في العصر الأموي، وذلك لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والأخلاقية، فقد خرجت كثير من الأغراض الشعرية عما كانت عليه من التزامٍ ديني وسلوكي، فأصبح الشعراء لا يتورعون من قول الغزل الفاحش والهجاء المقذع والمدح الكاذب، والفخر بالأحساب والأنساب، وقول الباطل، وشواهد ذلك كثيرة من ذلك ما قيل لنصيب « يا أبا محجن، ألا تخبرنا عنك وعن أصحابك؟ قال: بلى، جميل أصدقنا شعرا، وكثيّر أبكانا على الظّعن، وابن أبي ربيعة أكذبنا، وأنا أقول ما أعرف » [19]، فقد قسَّم نصيب الشعراء بحسب الصدق والكذب، فكان عمر بن أبي ربيعة أكذب القوم، ومما يشهد لهذا الخبر ما حدث به ابن عائشة قال : « حضر ابنُ أبي عتيق عمرَ بن أبي ربيعة وهو ينشد قوله:

وَمَنْ كَانَ مَحْزُونَاً بِإِهْرَاقِ عَبْرَةٍ	وَهَيْ غَرْبُهَا فَلْيَأْتِنَا نَبْكِهِ غَدَا
نُعِنْهُ عَلَى الإِثْكَالِ إِنْ كَانَ ثَاكِلًا	وَإِنْ كَانَ مَحْرُوباً وَإِنْ كَانَ مُقْصِدَا

قال: فلما أصبح ابن أبي عتيق أخذ معه خالدا الخزّيت وقال له: قم بنا إلى عمر، فمضيَا إليه، فقال له ابن أبي عتيق: قد جئناك لموعدك، قال: وأي موعد بيننا؟ قال: قولك : فليأتنا نبكه غدا، قد جئناك، والله لا نبرح أو تبكي إن كنت صادقا في قولك، أو ننصرف على أنك غير صادق، ثم مضى وتركه » [20]

فابن أبي ربيعة لا يرى بأسا في الكذب بل هو عنده من مقتضيات قول الشعر ولوازمه، ولهذا انتقدته امرأة (اسمها البغوم) على بيته الذي يقول فيه :

وَلَقَدْ قُلْتُ لَيْلَةَ الجَزْلِ لَمَّا	أَخْضَلَتْ رِيطَتِي عَلَيَّ السَّمَاءُ

بقولها : « : ما رأيت أكذب منك يا عمر تزعم أنك بالجَزْلِ وأنت في جُنْبُذِ [21] محمد بن مصعب، وتزعم أن السماء أخضلت ريطتك وليس في السماء قزعة [22] قال: هكذا يستقيم هذا الشأن » [23]

وأصبح الكذب في العصر العباسي يمثل توجها واضح المعالم له أنصاره، سواء عند الشعراء أو النقاد، فخير ما يمثل توجه الشعراء بيت البحتري الشهير، الذي يقول فيه :

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ	فِي الشِّعْرِ يَكْفِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهْ

أما النقاد، فلعلَّ أول من يصادفنا هو قدامة بن جعفر (ت337هـ) الذي حاول تخفيف حدة النظر إلى الكذب على أنه مخالفة للواقع، إلى القول بأنه نوع من الغلو المستملح، الذي لابد من حضوره في الشعر؛ لأنه هو من يعطي الشعر تميزه عن غيره من الأجناس الأدبية الأخرى, ولم ير بأسا في أن يخالف الشاعر ما يراه ويعتقده، بحيث يمدح الشيء مرة ثم يذمه، يقول في ذلك : « مما يجب تقديمه أيضاً أن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين، بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً، ثم يذمه بعد ذلك ذماً حسناً أيضاً، غير منكر عليه ولا معيب من فعله، إذا أحسن المدح والذم، بل ذلك عندي دليل على قوة الشاعر في صناعته واقتداره عليها » [24]، وهو في هذا متأثر بالسوفسطائيين اليونانيين المؤمنين بالفن الزائف، وهذا الموقف من قدامة يحيلنا إلى القول بحتمية استبعاد مقولة الصدق عن العملية الإبداعية / النقدية، وبهذا هو يرى « أن الصدق ليس معيارا نقديا يميز الجودة من الرداءة في الشعر، كما أن البحث عن الصدق أو عدمه ينتقل بنا من الشعر إلى الشاعر، أو من الشعر إلى المعتقد، فنطابق بين الشعر وشيء خارجي منفصل عنه، دون أن نهتم الاهتمام الواجب بصورة الشعر أو شكله أو صياغته، وهي أساس الحكم بالجودة »

[25] فرسالة الشاعر أدبية في الدرجة الأولى، فليس يطلب منه أن يكون مصلحا اجتماعيا ولا داعية دينيا، فالشاعر ليس بالضرورة يكون صادقا، أو الصناعة الشعرية تحتم عليه ذلك، يقول قدامة مقررا هذا المعنى « الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً، بل إنما يراد منه، إذا أخذ في معنى من المعاني كائناً ما كان أن يجيده في وقته الحاضر » [26]

أما المتأثرون بفلسفة أرسطو كالفارابي (ت339هـ) مثلا فإنه نظر للأقاويل الشعرية القائمة على التخييل، أنها تخالف الأقاويل البرهانية والخطابية القائمة على الصدق، ولهذا نجده يربط بين التخييل والكذب، وهذا ما تناوله حازم القرطاجني مفصلا في قوله : « الأقاويل الشعرية منها ما هو صدق محض, ومنها ما هو كذب محض, ومنها ما يجتمع فيه الصدق والكذب، والكذب منه ما يعلم أنه كذب من ذات القول, ومنه ما لا يعلم كذبه من ذات القول، فالذي لا يعلم كذبه من ذات القول ينقسم: على ما لا يلزم علم كذبه من خارج القول, وإلى ما يعلم من خارج القول أنه كذب ولابد » [27] ثم راه يفصل أوجه الكذب والاختلاق في تقسيمات عديدة، منها الاختلاق الإمكاني : وهو « أن يدعي الإنسان أنه محب ويذكر محبوبا تيمه ومنزلا شجاه, من غير أن يكون كذلك، وعنيت بالإمكان: أن يذكر ما يمكن أن يقع منه ومن غيره من أبناء جنسه, وغير ذلك مما يصفه ويذكره » [28]وهذا النوع لا يعلم كذبه من القول ذاته، بل من خارجه، أما ما يعلم كذبه من القول فهو ما يسميه بالاختلاق الامتناعي والإفراط الامتناعي والاستحالي، وحقيقته « أن يغلو في الصفة فيخرج بها عن حد الإمكان على الامتناع أو الاستحالة » [29]

وقد فرق حازمٌ بين الامتناع والاستحالة بقوله : « **الممتنع**: هو ما لا يقع في الوجود وإن كان متصورا في الذهن, كتركيب يد أسد على رجل مثلا، و**المستحيل**: هو ما لا يصح وقوعه في وجود, ولا تصوره في ذهن ككون الإنسان قائما قاعدا في حال واحدة » [30]

أما النوع الأخير عنده فهو : الإفراط الأمكاني، الذي يعرِّفه بقوله : « فأما الإفراط الإمكاني فلا يتحقق ما هو عليه من صدق أو كذب, لا من ذات القول ولا من بديهة العقل, بل يستند العقل في تحقق ذلك إلى أمر خارج عنه وعن القول, إلا أن يدل القول على ذلك بالعرض، فلا يعتد بهذا أيضا، وإنما نسميه إفراطا بحسب ما يغلب على الظن» [31]

وهذا النوع الأخير يقع عند العرب من جهات الشعر – كما يسميها حازمٌ– التي تنصرف الأقاويل الشعرية لوصفه ومحاكاته كالحبيب والمنزل والناقة والطيف...ومن جهة أغراضه، التي « هي الهيئات النفسية التي ينحى بالمعاني المنتسبة على تلك الجهات نحوها ويمال بها في صوغها لكون الحقائق الموجودة لتلك المعاني في الأعيان مما يهيئ النفس بتلك الهيآت, ومما تطلبه النفس أو تهرب منه, إذا تهيأت بتلك الهيآت »[32]

ولعلَّ الآمدي (ت370هـ) لم يبتعد عن هذا التصوِّر حين يقول : « والشاعر لا يطالب بأن يكون قوله صدقاً، ولا أن يوقعه موقع الانتفاع به؛ لأنه قد يقصد إلى أنه يوقعه موقع الضرر » [33]، والآمدي في قوله السابق هو يؤسس لعمود الشعر العربي، الذي ليس من مقتضياته عنده الصدق في الشعر، ونجده في موضوع آخر من كتابه يبعد أحكام الدين وتشريعاته وقيمه الخلقية عن حمى الشعر، وذلك في قوله : « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر، لوجب أن يُمحى اسمُ أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عُدّت الطبقات، ولَكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبَعري وأضرابُهما من تناول رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بُكْماً خرساً، وبِكاء مفحمين؛ ولكنَّ الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر » [34]

لاشك أن الصلة وثيقة بين الكذب كقيمة أخلاقية والكذب كقيمة فنية – إن صحَّ التعبير – ولهذا نجد من يجيز الكذب بالتخييل والتمويه، ويرى أن الكذب الفني فيه مبالغة وإغراق وغلوٌّ وتخييل، وصاحبه يعلم عدم صدقيته والمتلقي كذلك، بل إن من فضل الشعر أنَّ الناس يرون الكذب فيه ومع ذلك يستملحونه ويقبلونه، ولا يقبلون الكذب في غيره، فالشاعر يمدح ويتزيد في مدحه، ويهجو ويتزيد في هجائه، ويفخر ويتزيد في فخره، ومع ذلك يعدُّ ذلك من صميم هوية الشعر، وفيما يأتي نشرح أوجه الكذب الفني السابقة، حتى يتبين لنا وجه مخالفتها للواقع :

المبالغة : يعرِّفها قدامة بن جعفر بقوله : « وهي أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد له » [35] ويزيده أيضاحا أبو هلال العسكري (ت395هـ) بقوله : « أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله وأقرب مراتبه » [36] فالمبالغة إذن وصف للشيء البعيد وقوعه عادة، مع عدم استحالته عقلا.

ومن طرقها الإتيان بصيغ المبالغة كصبور وقتّال... وأيضا التشبيه كالتشبيه بالأسد في الشجاعة وما شابه، وترادف الصفات وتكريرها، وكذا إتمام الكمال بما يوجب حصول المبالغة فيه، وشاهد النوع الأخير قول عمرو بن الأيهم التغلبي[37]:

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا	وَنُتْبِعُهُ الكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

فإكرام الجار ما دام فيهم من الأخلاق المحمودة، أما إتباعهم إياه الكرامة حيث مال، هو من المبالغة في الجميل.

الإغراق : هو فوق المبالغة ودون الغلو « وهو في الاصطلاح إفراط وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة » [38] فالإغراق هو ممكن عقلا ممتنع عادة، وشاهد الإغراق قول المتنبي [39] :

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَنَّنِي رَجُلٌ	لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِ

الغلو: وهو فوق المبالغة والإغراق، وحدُّه : « الإفراط في وصف الشيء بالمستحيل وقوعه عقلًا وعادة وهو ينقسم إلى قسمين: مقبول، وغير مقبول » [40]

وشاهد الغلو قول أبي نواس [41] :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى أَنَّهُ	لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

فالغلو يتضح هنا في إسناد الخوف إلى النُّطف غير المخلوقة، وهذا أمر ممتنع عقلا وعادة.

وجدير بالذكر أنَّ كثيرا من البلاغيين من يجعل الأنواع السابقة كلها تدخل في حيز المبالغة بدرجاتها، ويرى أنها من أجلِّ مقاصد البلاغة « وأعظمها في البراعة، ومن أجلها نشأت المحاسن في المعاني الشعرية، وحجتهم على هذا أن خير الشعر أكذبه، وأفضل الكلام ما بولغ فيه، ولهذا فإنك ترى الكلام إذا خلا عنها وبعد عن استعمالها كان ركيكا نازلا قدره، ومتى خلط بها ظهرت فصاحته وراق رونقه وحسن بهاؤه وبريقه » [42]

وقد أجمل حازمٌ القرطاجني الحكم على الإفراط والمبالغة في الشعر بقوله : « والكذب الإفراطي معيب في صنعة الشعر إذا خرج (من) حد الإمكان إلى حد الامتناع أو الاستحالة، والإفراط: هو القسم الذي يجتمع فيه الصدق والكذب، فإن الشاعر إذا وصف الشيء بصفة موجودة فيه, فأفرط فيها, كان صادقا من حيث وصفه بتلك الصفة, وكاذبا من حيث أفرط فيها وتجاوز الحد، فهذا قد يجيء منه ما يستحسنه بعض أرباب هذه الصنعة » [43]

ولكنه مع ذلك يجعل الصدق التام في الشعر من أمارات ضعف صاحبه، وعدم تمكنه من صناعة الشعر، فيقول مبينا نوعي القول الصادق كما يراه : « فأما القسم الثالث وهو القول الصادق, فمنه القول المطابق للمعنى على ما وقع في الوجود, ومنه المقصر عن المطابقة بأن يدل على بعض الوصف ويقع دون الغاية التي انتهى إليها الشيء من ذلك الوصف. فهذا النوع من الصدق في الشعر قبيح من جهة الصناعة وما يجب فيها » [44]

أما التَّخييل في بعض صوره فهو – بلا شك – لا يتفق والصدق، من حيث إنه يركب بين حقيقتين، أو بين شيئين حقيقيين، كما يظهر ذلك في التشبيهات والاستعارات والمجازات، من ذلك قول بشار مثلا [45] :

كأنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ	وَأَسْيَافَنِا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

فقد شبه غبار المعركة بالليل، وشبه السيوف في الغبار بالكواكب المنقضَّة في الليل، فأتى بصورة متخيلة لا علاقة لها بالواقع جمعت بين حقائق معروفة مركبة، فشبه مركبين بمركبين.

وهذا ما قصده حازم القرطاجني بما يسمى :" الكذب الاختلاقي في أغراض الشعر "، والذي « لا يعاب من جهة الصناعة لأن النفس قابلة له, إذ لا استدلال على كونه كذبا من جهة القول ولا العقل، فلم يبق إلا أن يعاب من جهة الدين، وقد رفع الحرج عن مثل هذا الكذب أيضاً في الدين, فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يُنْشَدُ النسيبَ أمام المدح, فيصغي إليه ويثيب عليه» [46]

ومن ناحية ثانية نرى أن التخييل يقوم على تغيير الحقائق « فكم جواد بخَّله الشعر وبخيلٍ سخَّاه؛ وشُجاعٍ وسمه بالجُبن وجبانٍ سَاوَى به الليث؛ ودَنِيٍّ أوطأه قِيمة العيُّوق، وغَبيٍّ قضى له بالفهم، وطائش ادَّعى له طبيعة الحُكْم » [47] كما يقول الجرجاني.

ويقول في موضع آخر ذاكرا موقف القائلين بجواز الكذب في الشعر : « ومن قال: «أكذبه»، ذهب إلى أن الصنعة إنما تمدّ باعها، وتنشر شعاعها، ويتّسع ميدانها، وتتفرّع أفنانها، حيث يعتمد الاتّساع والتخييل، ويدّعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتخيل وحيث يقصد التلطف والتأويل ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذمّ والوصف والنعت والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض، وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد، ويبدي في اختراع الصّور ويعيد، ويصادف مضطربا كيف شاء واسعا، ومددا من المعاني متتابعا، ويكون

كالمغترف من عدّ لا ينقطع، والمستخرج من معدن لا ينتهي » [48] وهذا ما ذهب إليه حازم القرطاجني الذي يرى أن أفضل الشعر القائم – بعد المحاكاة والتخييل – على الكذب الخفي والتمويه المستملح، إذ لو كان خاليا منها لما عدَّ شعرا وإن كان موزونا مقفى؛ لأن المعتبر عنده يرجع لمبلغ التأثير في السامع، وهذا الأخير في الغالب لا يتفاعل ويستجيب إلا للغريب والمفارق للمعهود، يقول مقررا هذه الفكرة : « فأفضل الشعر ما حسنت محاكاته وهيأته, وقويت شهرته أو صدقه, أو خفي كذبه, وقامت غرابته، وإن كان قد يعد حذقا للشاعر اقتداره على ترويج الكذب وتمويه على النفس وإعجالها إلى التأثر له قبل, بإعمالها الروية في ما هو عليه، فهذا يرجع إلى الشاعر وشدة تخيله في إيقاع الدلسة للنفس في الكلام » [49]

ويلخّص المرزوقي القائلين بتفضيل الكذب على الصدق في الشعر بقوله : « ومنهم من اختار الغلوَّ، حتى قيل : " أَحْسَنُ الشِّعْرِ أَكْذَبُهُ "، لأن قائله إذا أسقط عن نفسه تقابلَ الوصف والموصوف امتدَّ فيما يأتيه إلى أعلى الرُّتبة، وظهر قوَّته في الصياغة، وتمهُّرهم في الصناعة، واتسعت مخارِجُهُ ومواجِهُ، فتصرَّف في الوصف كيف شاء، لأن العمل عنده على المبالغة والتمثيل، لا المصادقة والتحقيق، وعلى هذا أكثر العلماء بالشعر والقائلين له » [50]

ثالثا : أَحْسَنُ الشِّعْرِ أَقْصَدُهُ :

وهذا موقف وسط بين الرأيين السابقين، ويمثله المرزوقي، الذي لم يرجح كفة أحدهما على الآخر، حيث يرى أنَّ « " أَحْسَنَ الشِّعْرِ أَقْصَدُهُ "؛ لأن على الشاعر أن يبالغ فيما يصير به القول شعرا فقط، فما استوفى أقسام البراعة والتجويد أو جلَّها، من غير غلوٍّ في القول ولا إحالة في المعنى، ولم يُخرِجِ الموصوفَ إلى أن لا يُؤَمن لشيء من أوصافه، لظهور السَّرف في آياته، وشمول التزُّيد لأقواله، كان بالإيثار والانتخاب أولى » [51]

ويؤكد هذا الرأي من وازن معيار المبالغة الشعرية في ميزان الصدق والكذب، فرأى من الأحسن التوسط في الحكم عليها؛ لأن بها « فضل بهاء وجودة رونق وصفاء لا يخفى على من كان له أدنى ذوق، ولكن ليس على جهة الإطلاق، فإن الصدق فضله لا يجحد، وحسنه لا ينكر، فمهما كانت المبالغة جارية على جهة الاعتدال بالصدق فهي حسنة جميلة، ومهما كانت جارية على جهة الغلو والإغراق فهي مذمومة » [52]، وهذا رأي جماهير العلماء والبلاغيين، ودليلهم على قبولها والقول بها، أن التنزيل الحكيم جاء بها في أكثر من موضع.

وممن رأى التوسط في الحكم في هذه القضية حازم القرطاجني، وذلك بعدما تناول جميع أوجه الصدق والكذب كما يراها، بقوله : « فقد تبين من هذا ومما قبله أن الشعر له مواطن لا يصلح فيها إلا استعمال الأقاويل الصادقة, ومواطن لا يصلح فيها إلا استعمال الأقاويل الكاذبة, ومواطن يصلح فيها استعمال الصادقة والكاذبة واستعمال الصادقة أكثر وأحسن, ومواطن يحسن فيها استعمال الصادقة والكاذبة واستعمال الكاذبة أكثر وأحسن, ومواطن تستعمل فيها كلتاهما من غير ترجح. فهي خمسة مواطن, لكل مقام منها مقال » [53]

وهذا التوسط في النظر للشعر من خلال علاقته بالكذب والمبالغة قد انعكس على النقاد العرب المعاصرين، يقول محمد غنيمي هلال : « نعتقد أنه ليس من الصواب قبول المبالغة، وما يتصل بها على وجه الإطلاق ولا رفضها كذلك، ولا تعميم القول بقبولها في حالة الاعتدال والتوسط كما قالوه، بل الصواب أن نقبل هذه الوجوه وسواها على أساس الصدق؛ فإذا لم تزيف الحقائق، ولم تصور غير الواقع، ولم توهم الباطل كانت مقبولة، بل قد تكون دعامة الصدق الفني لتصوير المعنى وإثارة الفكر والخيال، وتوصيل أعمق الحقائق إلى العقل والقلب » [54]

خَاتِمَةٌ :

ومِمَّا سبق من عناصر هذه الدراسة نصل إلى النتائج التالية:

*/ تنوعت مواقف النقاد العرب القدامى لقضية الصدق والكذب، وهي ترجع في مجموعها إلى ثلاثة مواقف : فمنهم من رأى أن أحسن الشعر أكذبه، ومنهم من رأى أن أحسن الشعر أصدقه، ومنهم من رأى أن أحسن الشعر أقصده.

*/ معيار الصدق في المعطى الإسلامي يشكّل حكما نقديا ثابتا أقرته النصوص الدينية (القرآن والسنة النبوية)، وشواهد الخلفاء الراشدين.

*/ من رأى من النقاد ضرورة صدقية الشعر انطلقوا من فكرة ضرورة الربط بين القيمة الفنية والقيمة الأخلاقية وعلى رأس أولئك ابن طباطبا وعبد القاهر الجرجاني.

*/ البدايات الحقيقية لانحراف الشعر عن مساره القائم على الصدق والاعتدال يرجع إلى العصر الأموي، حيث لم يجد الشعراء حرجا في الكذب ومخالفة الواقع، ورأوا أنه من مقتضيات الصناعة الشعرية، ثم برز بعد ذلك كتوجُّه طاغٍ من الناحية التنظيرية والعملية في العصر العباسي.

*/ من قال بحتمية الكذب في الشعر جعل من بعض الأساليب البلاغية؛ كالمبالغة والغلو والإغراق والتخييل دليلا على مقبولية الكذب في الشعر، وإلا غدت الصناعة الشعرية باردة سمجة لا تقدم الجمال المستملح والمطلوب.

*/ الموقف الثالث الذي يرى الاقتصاد في قول الشعر بين الصدق والكذب، انطلق من اعتبار كلا الوصفين له قيمة وأفضلية في صناعة الشعر، وأنهما يأتيان على حسب المقام الوارد فيه.

هَوَامِش :

[1]- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج01، شرحه : محمود محمد شاكر، دار المدني، السعودية، دط، ص 40.

[2]- أبو محمد عبد الله بن قتيبة، الشعر والشعراء، ج01، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط02، 1982، ص 297.

[3]- زهير بن أبي سلمى، الديوان، اعتنى به وشرحه : حمدو طمَّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط02، 2005، ص68.

[4]- أبو عبد الله حسين بن أحمد الزَّوْزَنِي، شرح المعلقات السبع، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ط01، 2002، ص 143.

[5]- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج13، تح : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط02، 1964، ص 153.

[6]- التحبير: التحسين.

[7]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان،ج 06، تح : عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط02، 1965، ص 235.

[8]- محمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02، 2005، ص 22.

[9]- المصدر نفسه، ص 27 – 28.

[10]- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط04، 1983 ، ص28.

[11]- محمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، مصدر سبق ذكره، ص 15.

[12]- حسان بن ثابت، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02، 1994، ص 174.

[13]- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح : محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1988، ص 236.

[14]- الصفحة نفسها.

[15]- يحي بن حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج03، تح : عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 2001، ص64.

[16]- الصفحة نفسها.

[17]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص 72.

[18]- أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج01، تح: أحمد أمين عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط01، 1991، ص11.

[19]- أبو عبد الله محمد المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1995، ص 241.

[20]- أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، ج01، تح : إحسان عباس وآخرون، دار صادر، بيروت، لبنان، ط03، 2008، ص116 – 117.

[21]- الجنبذ : البناء المرتفع المستدير.

[22]- القزعة: ما تناثر من الغيم.

[23]- أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 124.

[24]- أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط01، 1302هـ، ص 04.

[25]- جابر عصفور، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط05، 1995، ص 100.

[26]- أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مصدر سبق ذكره، ص06.

[27]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مصدر سبق ذكره، ص 76.

[28]- المصدر نفسه، ص 76.

[29]- الصفحة نفسها.

[30]- الصفحة نفسها.

[31]- المصدر نفسه، ص 77.

[32]- الصفحة نفسها.

[33]- أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ج01، تح : السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط04، 1982، ص 428.

[34]- علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 2006، ص63.

[35]- أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مصدر سبق ذكره، ص 50.

[36]- أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 1952، ص 365.

[37]- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج02، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط05، 1981، ص55.

[38]- ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، ج02، تح: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط03، 2004، ص 12.

[39]- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، ج04، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط02، دت، ص186.

[40]- ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، ج02، مرجع سبق ذكره، ص16.

[41]- أبو محمد عبد الله بن قتيبة، الشعر والشعراء، ج02، مصدر سبق ذكره، ص 801.

[42]- يحي بن حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج03، مصدر سبق ذكره، ص64.

[43]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مصدر سبق ذكره، ص79.

[44]- الصفحة نفسها.

[45]- بشار بن برد، الديوان، ج01، تح : محمد الطاهر بن عاشور، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص335.

[46]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مصدر سبق ذكره، ص 78- 79.

[47]- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سبق ذكره، ص 236.

[48]- المرجع نفسه، ص 236 – 237.

[49]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مصدر سبق ذكره، ص 71- 72.

[50]- أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 11-12.

[51]- المصدر نفسه، ج01، ص12.

[52]- يحي بن حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج03، مصدر سبق ذكره، ص65.

[53]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مصدر سبق ذكره، ص 85.

[54]- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط03، 1997، ص221.